Coptology

عودة إلى وراثة الخطية

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٥

www.coptology.org

ورد إلى الموقع تعليق من الأخ بيشوي ممدوح على كتابنا: وراثة الخطية أم سيادة الموت؟ يقول فيه:

إلى دكتور جورج ...ان التعليم بعدم وراثة الخطية نفسها هو تعليم جديد على مسامعنا ... لكنى أريد ان استفسر ... ما دمنا لم نرث الخطية نفسها ولكن ورثنا الطبيعة الفاسدة القابلة للموت الجسدي و الروحي ...وبهذا صارت الخطية التي نعملها هي بمحض ارادتنا وميل الطبيعة للشر ... فكل من سيطرت عليه الطبيعة المائلة للشر صار خاطئا و يحتاج للخلاص وهنا لي استفساران ١- اذا امنا العذراء لم ترث الخطية كسائر بنى أدم جميعهم ... بل ورثت طبيعة فاسدة تميل للشر ولكن نعلم من الكتاب المقدس و كتابات الاباء و الليتورجيا ان امنا العذراء عاشت بدون عمل ادنى خطية خارجة منها او تحمل ارادتها ... ٢- هناك بعض من قديسي العهد القديم لم يذكر الكتاب المقدس لهم خطية بشرية قاموا بها بإرادتهم مثل اخنوخ ... ويوحنا المعمدان في العهد الجديد بماذا استفادت العذراء مريم و امثال اخنوخ و يوحنا المعمدان من القديسين من فداء المسيح ... اعتقد طبقا لزعمكم انهم لم يأخذوا غفرانا للخطية اذ انهم لم يرثوا الخطية من ادم ولا فعلوها بإرادتهم لأن طبيعتهم لم تميل لفعل الشر ؟؟؟؟ام ان الفداء بالنسبة لها وللقديسين الذين ذكرت مثالين لهم كان الفداء بالنسبة لهم هو الحصول مرة اخرى على طبيعة غير فاسدة تتمتع بالخلود وعدم التألم ... طبيعة متألهة ؟؟؟؟اشكركم على مجهوداتكم الكثيرة ... والرب يعطى سلاما وبنيانا لكنيسة الله الواحدة ... سلامة التعليم ونهضة روحية حقيقية للكنيسة الارثوذكسية القبطية.

عودةٌ إلى موضوع وراثة الخطية

خلفية ثقافية وتاريخية

سؤالٌ أسمعه بشكلٍ شبه دائم، يعكسُ -بشكلٍ واضحٍ- الابتعاد عن التراث الشرقي عامةً، والسكندري خاصةً. دخل المبشرون الغربيون مصر في عدة مراحل متتالية، ولكنهم استقروا في مصر، وكوَّنوا عدة كنائس، منها ما يتبع روما، وهي كنيسة الأقباط الكاثوليك، وكنائس أسَّسها المبشرون الإنجيليون، وهي كنيسة الأقباط الإنجيليين.

كلا الجانبين ورث التعليم الأوغسطيني الذي ذاع وانتشر في الغرب في القرن الخامس، والذي يؤكد وراثة خطية، بل ذنب آدم أيضاً؛ وذلك لأن أوغسطينوس هو أحد آباء حركة الإصلاح في القرن السادس عشر، ويكرِّمه الإنجيليون والكاثوليك معاً.

كانت الكنيسة القبطية حقلاً بِكراً، ومع تصدِّي عددٌ من آباء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية مثل الأنبا يوساب الأبح، والقمص فيلوثاوس إبراهيم، ثم الأستاذ حبيب جرجس للرد على هجوم المبشرين من الطرفين، إلَّا أننا ذكرنا في أكثر من مناسبة، أن اتفاق الكاثوليك مع الإنجيليين حول بعض الموضوعات مثل: الفداء – الكفارة – دفع ثمن الخطايا – الخطية الأصلية، قد جعل بعضُ الذين عاشوا معنا، وكانوا معلِّمين لنا يظنون أن هذه هي عقائد مشتركة، تعود إلى الكنيسة الأولى قبل الانقسام. وكان السبب في شيوع هذه الفكرة هو انعدام تدريس مادة أساسية تُدرَّس في كل معاهد اللاهوت، وهي "تاريخ العقائد المسيحية"، ولذلك لا تجد في هذا المجال إلَّا كتب كاثوليكية، أو إنجيلية، أشهرها هو كتاب علم اللاهوت النظامي للكنيسة الإنجيلية.

كان لدينا حركة ثقافية تجمع مصر وسوريا ولبنان، وكانت الكتب المسيحية تنتقل بين هذه البلاد بسهولة، لا سيما بعد عصر الاعتماد على المطابع. والذين أدركوا

الأربعينات من القرن الماضي يذكرون جيداً "المطبعة الأمريكانية في بيروت"، وهي أقدم دار نشر إنجيلية في كل الشرق العربي، ثم مكتبة النيل المسيحية، وتزامن معها دار النشر للكنيسة الأسقفية. نشر الإنجيليون تفاسير "وليم آدي" الأمريكاني، ونشر الأسقفيون التفاسير البيضاوية للمستشرق الإنجليزي جاردنر. وتولت جمعية أصدقاء الكتاب المقدس ترجمة ونشر ف ب ماير. واضحٌ إذن، أن بذار وأشجار الحقل الثقافي كانت، إمَّا إنجيلية، وإما كاثوليكية. ولكن يجب أن نذكر الجهود التي بُذلت في حبرية البابا كيرلس الخامس، إذ أُعيد نشر تفسير المشرقي، وهو أحد أعلام الكنيسة السريانية المشرقية التي تُوصَف خطأ بأنها نسطورية.

كان العالم السرياني الكبير أبو الفرج بن الطيب هو الناقل، بل وضع كتاباً في القوانين باسم "فقه النصرانية"، هو نواة كتاب الصفي بن العسال، وعنه نقل بن العسال الكثير في كتابه "المجموع الصفوي".

في مجال العقائد نقل أستاذنا حبيب جرجس كتاب أسرار الكنيسة السبعة عن كتاب مطران اللاذقية للروم الأرثوذكس المطران جراسيموس مسرة، وعندما لم يجد معلومات كافية عن الكهنوت، نقل ملزمةً كاملةً نشرتها الكنيسة الأسقفية، وذكر هذا في حاشية الطبعة الأولى. كما نقل القمص ميخائيل مينا كتابه "علم اللاهوت النظري" عن كتاب لبناني ماروني.

هذه هي الخلفية الثقافية التي من خلالها انتشر التعليم بوراثة ليس الخطية فقط، بل ذنب آدم أيضاً.

عقدت كنائس الغرب مجمع Orange في (٥٢٩) وهو المجمع الذي قَبِلَ تعليم القديس أوغسطينوس. كان الشرق قد انقسم في ٤٥١ (خلقيدونية) وفشلت مساعي الوحدة ودخل الفرس سوريا ولبنان ومصر بقوة عسكرية كبرى ودُمِّرت الكثير من المدن وفي مقدمتها الإسكندرية.

لم يكن لدينا في الشرق الخلقيدوني واللاخلقدوني مجامع تحدد عقائد الكنيسة، فقد انشغلت كل الكنائس الشرقية بمحاولة البقاء والاحتفاظ بالحياة في وجه العواصف التي خربت مصر وسوريا واليونان .... الخ. عواصف تقودها قوى عسكرية لا تملك

الامبراطورية الرومانية الشرقية القوة العسكرية للتصدي لها، وكانت آخر محاولات تجديد شباب الامبراطورية في عهد هرقل (٦١٠-٦٤١)، وبموته بات تهديد العثمانيين الشغل الشاغل، ولم تنعقد مجامع مكانية ذات أهمية لاهوتية إلَّا مجمع عام (١٣٥١) الذي قاده غريغوريوس بالاماس.

حاول بعض مؤرخي الكنيسة الكاثوليكية إدخال تعليم أوغسطينوس عن "الخطية الأصلية"، وهو تعبير لاتيني طبعاً، تُرجِمَ إلى اليونانية، ولكن هناك فرق كبير بين تعبير أو مصطلح لاهوتي له مرجعية، وآخر تُرجِم دون أن يكون له مرجعية، أي لم يظهر في وثائق وكتابات آباء الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية الذين كتبوا باليونانية أو القبطية أو السريانية أو الأرمنية. أن يكون لدينا مصطلح مُترجَم من وعن وثائق أخرى، ومن بيئة ثقافية أخرى، غير أن يكون لدينا مصطلح نشأ في ذات البيئة؛ لأن الأول يؤكد أننا إزاء موضوعٍ انشغل به الفكر، والثاني يؤكِّد غياب هذا الموضوع. ولهذا السبب بالذات، فأن عدم وجود تعبير الخطية الأصلية في كتابات الآباء الشرقيين، يؤكد لنا أن هذا التعليم الذي ورد في القرن التاسع عشر والعشرين في بعض كتابات أرثوذكسية معاصرة، إنما هو نقلٌ عن التعليم الغربي.

المصطلح ليس هو جوهر الخلاف:

ومع ذلك، فالمصطلح ليس هو جوهر الخلاف؛ لأن تاريخ العقيدة المسيحية شرقاً وغرباً لم يكن تاريخ مصطلحات. وفي الشرق الأرثوذكسي لم تؤسِّس الكلمات أو المصطلحات الحق المستعلَن؛ لأن تجسُّد الرب ابن الله في اللحم والدم لم يكن كلمات، بل كان ولا يزال معنا، بل فينا، الحضور الإلهي للابن المتجسد الذي فيه ومنه قبلنا الآب والروح القدس. وتاريخياً، لم تبدأ الكرازة بمصطلحات، بل بشهادة الرسل عن قيامة المسيح. ولم يكن الاعتراف بالإيمان هو اعترافٌ بكلمات، بل كان اعترافاً بالهبة والعطية "يسوعُ ربٌّ لمجد الله الآب" (فيلبي ٢: ١١) كما ذكر رسول المسيح. وحسب النطق والصياغة معاً، يبدو الأمر مجرد عبارة، ولكن من واقع التاريخ الكنسي وشهادة كل الذين كتبوا عن معنى أن يسوع هو ربٌّ، نجد عطية الحياة الأبدية، الإيمان بالقيامة وغفران

الخطايا، وعطية التبني، وسكنى الروح القدس. ولذلك السبب، حتى في تعريب الكلمات أو المصطلحات اليونانية أو القبطية، من الضروري علينا أن نلاحظ ما تعبِّر عنه الكلمات والمصطلحات من علاقة جديدة جاء بها الابن من عند الآب وأُعطيت بالروح القدس.

لذلك، ليس جوهر الخلاف مع الغرب الكاثوليكي والإنجيلي معاً، قبول أو رفض مصطلحٍ ما، بل قبول أو رفض ما يحمله المصطلح من تغيير في الوعي والإدراك، وما يمكن أن يتفرع عن هذا المصطلح من أفكار ليس لها سند في الثوابت الإلهية المعلَنة في الأسفار، أو تلك التي تمارَس في الحياة الليتورجية.

الخطيةُ فعلٌ شخصيٌّ، هل يمكن أن يُورَّث؟

من العبارات التي لا يمكن أن ننساها لأستاذنا د. وهيب عطا الله أنه قال أثناء شرح هرطقة بيلاجيوس: "إن الأب السكِّير الذي يُنفق أمواله على الخمر، يورِّث أولاده الفقر، ولكن الأولاد لا يرثون الإدمان، إلَّا إذا شربوا الخمر". بهذه الكلمات الواضحة بات من الضروري أن نفكر بطريقة موضوعية عن وراثة الخطية؛ لأنها فعلٌ صادرٌ عن الإرادة والفكر، خاصٌّ بكل فرد أو شخص على حدة يؤثِّر حتماً في الذين حوله، ولكنه لا يورَّث.

نحن لا نرث أفعال السابقين، بل نحن في واقع الحياة نفسه، نتعلم من السابقين الكثير مثل أنواع المهن والحرف والفن، بل ولغة الخطاب، ويجب أن نضيف والشرور أيضاً. لا يولد إنسانٌ ما أيَّاً كان، إرهابياً، ولكنه يتعلم الإرهاب من فردٍ أو جماعة. وحقاً ذكر العلامة السكندري أكليمنضس أن الخطية "تنتقل من فرد إلى آخر بواسطة العادات وآليات التعليم".

كان أستاذنا د. وهيب عطا الله متحمساً لتحديد أوغسطينوس بوراثة خطية وذنب آدم، ولكنه –كعادته– لم يكن يعطي لأي فكرةٍ ما مكانةً مطلقةً تفسِّر كلَّ شيء. المطلق عنده هو الكلمة أو اللوغوس الذي يشرح كل شيء، ولا تشرح أيُّ فكرةٍ ما أعمال أو استعلانات الكلمة اللوغوس؛ لأن سر المسيح يسوع يُستعلن بالروح القدس لا بالجهود العقلية، وكان يعتبر التأمل هو مجال عمل الروح القدس.

بل عن أستاذنا د. وهيب عطا الله، تعلَّمتُ أكبر مبادئ التدبير الإلهي، وهو أن النعمة تحدد الخطية وليس العكس. وطبعاً العكس هو ما كان ولا زال سائداً عندنا. فقد بدأنا بسقوط آدم ووراثة الخطية لكي نبني على فكرة الوراثة كل ما يمكن أن يبدو لنا منطقياً. والأسئلة التي وردت إلى الموقع هي أسئلة عكس التدبير: هي تبدأ بوراثة الخطية وانتقال الخطية، لا وراثة الموت وسيادة الموت. وحسب ما يبدو منطقياً: الخطية تورَّث لذلك ما هو موقف أو حالة أُم النور؟ وهكذا اخترع الغرب الكاثوليكي الحبل بلا دنس، وهو ما يعني أن أم النور وُلِدَت بدون خطية آدم، وهو، بلا شك، منطقٌ ينسجم مع اعتقادهم بوراثة الخطية، حتى لا يرث الرب نفسه خطية آدم. وعدم وراثة الرب نفسه لخطية آدم ضرورية في إطار الفكر الغربي الكاثوليكي والإنجيلي معاً؛ لأنه يجب أن يُقدَّم ذبيحة بلا خطية لكي يدفع ثمن خطايا البشرية، فكيف يرث خطية آدم، فهو حُبل به بالروح القدس؛ لأن أُمه حبلت أيضاً وولدت بلا خطية. هكذا، يشبه الأمر قطار بضاعة تجره قاطرة واحدة ويسير في اتجاه واحد.

على أن موضوع الوراثة كله غائب عن تراثنا الشرقي، بل أن قوانين الوراثة لم تُعرَف قبل العالم البيولوجي مندل (١٨٢٢-١٨٨٤)، ولكن ما هو معروف في تراثنا الشرقي هو: الفساد، أي انحلال الطبيعة الإنسانية، وتمزُّق الوجود؛ لأننا وُلِدنا من مصدرٍ ميِّتٍ، فلم نولد من مصدر حي، وبالتالي نحن نأتي إلى العالم بحياة مُستعبَدة للموت، وهذا الاستعباد للموت هو مصدر الخطية، هو رغبة الانسان العارمة أن يكون خالداً بالطبيعة؛ لأنه يحس بالموت ويشكِّل فيه الموت تهديداً لوجوده كله.

هناك بعض القراء يجدون لذةً غريبةً في اصطياد ما يتوهمون أنه أخطاء عقائدية فيما يُكتب. أنا لم أدع العصمة بالمرة، والمعصوم وحده هو الرب، ولكن هؤلاء مثل "صيادي الشر" يبحثون عن كلمة، ولهؤلاء أقول: لم يبحث الآباء، وبالذات أثناسيوس في وراثة الرب لطبيعة آدم الخاطئة، بل أكَّدوا أنها الطبيعة الخاضعة للموت (تجسد الكلمة أثناسيوس فصول ١-١٦)، وهنا يعني أنه "أخذ ما لنا"، أي طبعنا "القابل للموت" ومات على الصليب، فخلع وأباد الموت، بل حسب تعبير أثناسيوس الرسولي: "الموت لم يعد له سلطان، بل قد مات حقاً" (تجسد الكلمة ٢٧: ١).

سيادة الموت:

إن أي دراسة أمينة عليها أن تلتزم بالتاريخ، لا بما هو سائدٌ من أفكارٍ شعبية، فلا تقرأ المصادر المسيحية القديمة لكي تجد نصَّاً من هنا أو من هناك، وإذا لم تجد؛ تزوِّر في الترجمة –كما فعل الأنبا بيشوي أكثر من مرة، في تزوير نص هام للقديس أثناسيوس، ونصٌّ آخر لمجمع قرطاجنة[1]. دراسة التاريخ عندنا مهمَلة جداً على المستوى الوطني والكنسي معاً. فنحن لا نريد أن نتعلم من التاريخ كيف نتقدم؛ لأننا نظن أن تراثنا الشعبي هو الكمال الذي لا يحتاج إلى تغيير. لذلك –يا عزيزي– فأنت صادقٌ فيما تقول من إن التعليم بعدم وراثة الخطية هو تعليم غريب أو جديد على آذان السامعين؛ لأن السامعين اعتادوا على سماع تراث شعبي يبدو سهلاً ومعقولاً، ولكنه ضد كل ما يمكن أن يتوصل إليه العقل من معرفة.

– هل أباد تجسد الرب وصلبه وقيامته، الخطية؟ لا تستطيع أنت، ولا أنا، ولا أي مسيحي شرقاً وغرباً أن يقول إنه بلا خطية بعد الإيمان والمعمودية ومسحة الميرون والشركة في جسد الرب ودمه.

– هل لا تزال الخطية فينا نحن الذين نؤمن بالفداء والكفارة .... الخ حسب تعبيرات الأخوة من الإنجيليين التي تسللت إلى تعليم أُم الشهداء في مصر في العصر الحديث، تلك التعبيرات التي رسَّخها الأنبا شنودة، والتي يستميت الأنبا بيشوي في الدفاع عنها.

– هل كان رسول الرب يوحنا يكذب أو يدعي ذلك التواضع الكاذب السائد أحياناً عندنا عندما قال: "إن قلنا (يعني هو وكل من يقرأ الرسالة) إننا لسنا بلا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا"، ثم "إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل[2] حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم" (١يوحنا ١: ٨–٩).

كما أن رسائل الرسول بولس مملوءة بقوائم عن خطايا تفشَّت في الكنائس التي

---

(١) أشرنا إلى هذه النصوص تفصيلاً في كتابنا: وراثة الخطية أم سيادة الموت؟ منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية؟

(٢) هذا هو عدل الله الذي يغفر لأنه ليس مثل العدل الأرضي الذي يعاقب ولا يغفر.

أسَّسها (راجع على سبيل المثال ١كو ٥: ١٠-١٣، ٦: ٩-١١ – ١٠: ١٥-٢١ – ٢كو ٦: ١٤-١٨ – غلا ٣: ١-٣ – ٥: ١-٣ – ٥: ١٧-٢١ – أفسس ٤: ٢٢-٢٣ و ٢٥ -٣٢ – أفسس ٥: ٣-٧ –كولوسي ٣: ٥-١٥)، أليس هذا هو الصراع الدائم طالما نحن في الجسد؟!

فإذا كان الفداء من الموت هو حقيقة كيانية وُهِبَت لنا في المسيح، فإننا نتذوق عربون هذا الفداء الآن في القلب أو الروح، ثم تكمل هذه الحقيقة في الدهر الآتي بفداء الجسد من الموت (رو ٨: ١٨-٢٤)، وهو ما تترنم به أُم الشهداء في خاتمة قانون الإيمان: "وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي آمين".

ومَن يواظب على صلوات أُم الشهداء، يسمع طلب غفران الخطايا في مردات الشماس في القداس الإلهي، ويعرف تلك الصرخة التي تصدر من قلوب جريحة بالشَّرِ: "يا رب ارحم".

وحدة الموت والخطية التي كسرها الرب يسوع:

لاحظ دقة تعبيرات الرسول بولس في الربط بين الخطية والموت:

- ملكت الخطية في الموت (رو ٥: ٢١)
- شوكة الموت هي الخطية (١كو ١٥: ٥١)
- كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا (أفسس ٢: ١)
- نحن أموات بالخطايا (أفسس ٢: ٥).
- كنتم أمواتاً في الخطايا (كولوسي ٢: ١٣)

هذه الوحدة العضوية تعني أن إبادة جانب، إنما تعني بالضرورة إبادة الجانب الآخر. أباد الربُّ الموتَ، فهَدَمَ عرش الخطية الذي تجلس عليه لكي تملك (رو ٥: ٢١). وكَسَرَ الربُّ شوكة الموت، وهي البحث عن الخلود. وعندما كَسَرَ الربُّ ذلك الحلف أو هذا الاتحاد بين الموت والخطية؛ سقطت الخطية، فقدت العرش الذي تملك عليه؛ لأن الرب "بالموت أباد الموت"، كما نرتل نحن في الخماسين. وعندما أباد الربُّ الموتَ، لم يَعُد الموتُ حائلاً يمنع الإنسان من الحياة الأبدية.

حيلة فاشلة:

أدرك الرسول بولس أن المجتمع الروماني القديم (مثل أي مجتمع معاصر)، هو مجتمعٌ منحل أخلاقياً، يزرع الموت؛ لأن شوكة الموت لا تزال تغرس فيه كلَّ شهوةٍ باطلةٍ، فكتب إلى المسيحيين في روما يحذِّرهم من الانفلات: هل نبقى في الخطية لكي تكثر النعمة؟ (رو ٦: ١)، والجواب: حاشا. ولكن لماذا؟ نحن الذي مُتنا عن الخطية، كيف نعيش بعد فيها؟ (رو ٦: ٢)، وهنا أدعوك إلى ملاحظة دقة السؤال، فمَن مات لا يمكنه أن يعيش، وهو هنا يقصد من مات عن الخطية، لا يملك أن يعود إليها. ولكن قوة الموت التي تدمِّر الخطية ليست قوةً ذاتية، لذلك يقول الرسول: "أم أنكم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته؟" (رو ٦: ٣). لقد دخلنا موت الفداء، وموت الفداء يعني موت التحرير؛ لأن الفعل فدى يفدي، يعني يحرر، ولم يكن هذا الفعل بالمرة يعني دفعَ أجرةٍ بالنسبة لله، وهكذا يكتب الرسول: "أميتوا أعضائكم التي على الأرض" (كولوسي ٣: ٥)، ويضع قائمةً طويلةً: الزنا – النجاسة – الشهوة الردية – الطمع (كولوسي ٣: ٥ – ٦). ثم ترى خطايا الكنيسة في عبارة صريحة تبدأ: "أما الآن فاطرحوا عنكم أنتم أيضاً الكل: الغضب – السخط – التجديف – الكلام القبيح – لا تكذبوا .." (كولوسي ٣: ٨-٩). لقد جاءت حريتنا من الموت بموت الرب، لا بالموت فقط، أو بالموت وحده؛ لأن يسوع ربُّ الحياةِ هو الذي جاء إلينا بقوة الموت، أي موته الفياض بالمحبة، ويدعونا إلى أن نقبله، ليس في المعمودية ومسحة الميرون (زيوت وعطور دفن الرب) فقط، بل في الإفخارستيا أيضاً: "بموتك يا رب نبشِّر وبقيامتك المقدسة نعترف".

كيف يعمل فينا موت الرب؟

١– بالقضاء على سلطان العادات والمثُل التي غرسها المجتمع، وهي حسب الرسول بولس: "أركان العالم" (كولوسي ٢: ٢٠).

٢– بعودة الوعي بأن الوجود هو منحة من الرب. والوجود الذاتي بدون الرب هو وجودٌ يقود دائماً إلى الكبرياء أُمُّ كلِّ الشرور. هنا ننال وجودنا في الرب (فيلبي ٣: ٩)، ولذلك يصرخ بولس: "لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبِّهاً بموته **لكي أبلغ** إلى

قيامة الأموات[١]" (فيلبي ٣: ١).

٣– وقوة موت المصلوب تعمل فينا بالاتحاد به، ولذلك يقول الرسول: "احسبوا أنفسكم (أي بأدراك الوعي بأن هناك مصدرٌ آخر للحياة، وهو ليس الوجود الذاتي) أمواتاً عن الخطايا، ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا" (رو ٦: ١١).

فاعلية سِر المعمودية

بكل أسفٍ، يهاجم بعض الإنجيليين سِرَّ المعمودية، ويقولون عنها إنها بلا فاعلية؛ لأنهم يعرفون بعضاً من الذين نالوا المعمودية، ويعيشون في الشر؛ ولذلك تجدهم يسألون عن فاعلية المعمودية في خبثٍ شديد. ولكن المعمودية ليست سحراً يعمل بدون الإرادة الإنسانية، ولا هي تعويذة تعمل من تلقاء ذاتها، بل هي: "عالمين أن إنساننا القديم قد صُلِبَ معه" (رو ٦: ٦)؛ ولذلك، فإن عمل الإرادة بقوة الموت يعني: "لا تملك الخطيةُ في جسدكم المائت (الذي مات مع يسوع المسيح) لكي تطيعوها في شهواته، (ويزيد التأكيد) ولا تقدِّموا أعضاءكم آلات إثمٍ للخطية، بل قدِّموا ذواتكم لله أحياءٌ من الأموات وأعضاءكم آلات بر لله" (رو ١٦: ١٢–١٣).

إن ما يحدث في أحد التناصير هو أمرٌ شبيهٌ بـ"سلق البيض". سِرٌّ يعطي بلا تعليم، وبلا متابعة بعد السر. هذا ما عرفته على مدى أكثر من ربع قرن، بل سبق لي أن طلبت بإلغاء أحد التناصير، بعد إعدادٍ قويٍّ لهذا الإلغاء، ولكن عجلة الطقوس تدور بدون عقيدة، وهذه مصيبة كبرى.

عودة إلى أسئلة تحت مظلة الوراثة:

١– هل ورثت العذراء الخطية، أم أنها ورثت الطبيعة الآدمية القديمة؟

بالطبع، ورثت الطبيعة القديمة، **ولكنها نالت حريتها بحلول الروح القدس. وهنا يجب أن نفهم أن الولادة بدون زرع بشر هي تحرير الطبيعة من قوة وسلطان الحياة البيولوجية، وهو ما وضعها في مجال عمل الروح القدس الرب المحيي،**

---

(١) ترجمة بيروت العرجاء تقول: "لعلي أبلغ"، والكلمة "لعل"، لا تحمل أيَّ يقينٍ بالمرة.

فأعطت للرب يسوع حياته الإنسانية التي كوَّنها الروح القدس في أحشاءها متجاوزاً كل ما أتى به آدم.

٢– كيف استفادت أم النور وغيرها من فداء المسيح؟

طبعاً، استفادت أُم النور من التحرير من سيادة الموت.

ولكن دعني أخي الفاضل أولاً أن ألفت نظرك إلى ما جاء في أسئلتك، حيث تقول: "هناك بعض من قديسي العهد القديم لم يذكر الكتاب المقدس لهم خطية بشرية قاموا بها بإرادتهم مثل أخنوخ ... ويوحنا المعمدان في العهد الجديد، بماذا استفادت العذراء مريم وأمثال أخنوخ ويوحنا المعمدان من القديسين من فداء المسيح ...طبعاً لزعمكم أنهم لم يأخذوا غفراناً للخطايا، إذا أنهم لم يرثوا الخطية من آدم .. الخ". وأقول صدقاً، إنني لم أزعم شيئاً، وهي كلمة "ثقيلة وبايخة"؛ لأنني لست أنا، بل الآباء الذين تفضَّلت وأشرت إليهم في سطرٍ واحد، وكان الأجدر بك أن تأتي، ولو بعبارة واحدة تؤكد فيها أنني أزعم؛ لأن الحوار لا يستقيم الحوار طالما أنه محشوٌّ بالاتهام علي طقس الأنبا بيشوي مطران دمياط. لذا يجب أن نعود إلى طقس، أي ترتيب الرب والآباء الرسل ومعلمي الإيمان.

عموماً، غفران الخطايا لا علاقة له بخطية آدم، بل هو تجديد الكيان وتحرير الإنسان من الدينونة.

٣– نحن نولد بطبيعة مائتة لها ميل للشر، وتخطئ، وهو ما تراه واضحاً في كتاب خدمة المعمودية المقدسة في كنستنا. والغفران ليس هو "المسامحة" فقط، بل هو أيضاً الاستنارة – تجديد الكيان – رفع الدينونة – إبادة الموت – نوال التبني – عطية الملكوت.

أرجو أن لا تقرأ ولا تسمع للأنبا بيشوي، بل اقرأ وادرس كتب الكنيسة الأرثوذكسية حقاً، وهي خدمة سر المعمودية والميرون والقداسات ومسحة المرضى.

٤– أمَّا الاستنتاج بأننا نولد بطبيعة متألِّهة، فهو استنتاجكم أنتم وأنا لم أذكر شيئاً من ذلك، وعليك تقديم الدليل. لن يستقيم الحوار أبداً طالما لدينا تطرف في حشد أكبر قدر من الاعتراضات، دون أن نحشد ما يؤيد وجهة النظر من الأساس التاريخي. لأن هناك قارئ آخر همه أن يذكر أن هناك تناقض فاضح و"ضد تعليم الآباء"، وعبارات

أخرى، دون أن يشير إلى التناقض، ولا حتى إلى اقتباس واحد من الآباء .. إن عصر العموميات هو عصر جماعات الإرهاب المسلح، والإرهاب الفكري الذي كشف –في بعض ما ورد عند الإرهابيين– عن أننا إذ حلَّ فينا الروح القدس، نصبح آلهةً مثل الله. وكأن الله امرأةٌ تُغتَصب، أو طعاماً يؤكل، أو كائناً بلا ارادة ولا حرية عطاء له. هؤلاء – حسب التعبير السائد في القانون الجنائي وعلم النفس– هم Predators يقتحمون للسلب والنهب، كأن الله صار غنيمةً، وليس ضابط الكل خالق السموات والأرض.

٥– ونحن في القداس الغريغوري نقول عن الابن له المجد: "لم يحسب مساواته لله اختلاساً"؛ لأنه "أخلى ذاته"، فكيف تصبح سكنى الله فينا: "الله بالحقيقة ساكن فيكم" (١كو ١٤: ٢٥) اختلاساً؟ أليس هذا إنكار للنعمة؟!

الطبيعة والشخص:

لم ينتبه الذين قرأوا كتاب المطران يوحنا زيزيولاس "الوجود شركة" أنهم أمام منعطفٍ هام حوَّل مسار الحياة الفكرية من سيادة وخضوع الطبيعة، إلى شخصنة Personalization الفرد. السقوط هو سيطرة الطبيعة، وسيادتها على الشخص. وفداء الرب هو تحرر الإنسان من الطبيعة التي أسرها الموت وقدَّم لها عبودية الخطية إلى "حرية مجد أولاد الله"، ولذلك، في عبارة هامة للرسولي أثناسيوس يقول فيها في الرد على الأريوسيين ٣: ٣٣، وهو يذكر تألُّه الإنسان بسبب أعمال الكلمة اللوغوس: "لأنه لو كانت الأعمال الإلهية للكلمة لم تتم في الجسد، لَمَا كان الإنسان قد تألَّه، وأيضاً لو أن الضعفات (الإنسانية) الخاصة بالجسد لم تكن قد ظهرت في الكلمة (المتجسد) لَعَجَزَ الإنسانُ عن أن يتحرر منها، وظلت الخطية والفساد باقيان في الإنسان كما كان حال الجنس البشري (قبل التجسد). ولدينا أمثلةٌ عن بشر كثيرين قد تقدَّسوا وتطهروا من كل خطية مثل أرميا الذي تقدَّس وهو في الرحم (ارميا ١: ٥)، ويوحنا الذي وهو لا يزال جنيناً في البطن ارتكض بابتهاج عند سماع صوت مريم والدة الإله (لوقا ١: ٤٤)، ورغم ذلك فقد "مَلَكَ الموتُ من آدم إلى موسى وذلك على الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم (رو ٥: ١٤)، ولذلك ظلَّ البشرُ مائتين وقابلين للفساد كما كانوا، ومعرَّضين

للأوجاع الخاصة بطبيعتهم". ثم يضيف المعلم الرسولي أن تجسد ابن الله وموته المحيي وقيامته "لم يُسقِ الناسّ بعد خطاةً وأمواتاً بحسب أوجاعهم، بل قد قاموا بقوة الكلمة وصاروا غير مائتين وغير فاسدين"؛ لأن الكلمة المتجسد جاء "لكي ينقل بداية تكويننا إلى كيانه، ولكي لا نرجع فيما بعد كتراب إلى تراب، ولكن بارتباطنا بالكلمة الذي من السماء، فإننا نُحمَلُ إلى السموات بواسطته .." (راجع الترجمة العربية ص ٦٣ –٦٤).

الطبيعة المتألِّهة هي خرافة الوثنية:

نقل الخطية وسيادتها على الإنسان إلى آدم هي خرافةٌ لا تليق بالمسيحية؛ لأنها أصلاً جاءت من المانوية، أي بدعة ماني التي كان أوغسطينوس تلميذاً وفيَّاً لها[١]. كان تعليم ماني بِشَرِّ الجسد الموروث له علاجٌ واحد، وهو الامتناع عن الزواج، ولم يدرك الأنبا بيشوي وهو ينقل فكرة وجود بذرة الشر في زرع الرجل، أنه ينقل هرطقة ماني ومدارس الغنوصية، التي تعلِّم بازدواجية الوجود الإنساني وتقسيمه إلى جزء شرير هو من صنع إله الشر، وآخر صالح من صنع إله الخير، وطبعاً الشرير هنا هو الجسد. ولم يدرك مطران دمياط أن الإنسان لا يولد فقط من زرع الرجل، بل تقدِّم المرأة البويضة أيضاً. ولم يدرك علَّامة اللاهوت في عصره أن الإشارة إلى أن سبط لاوي قد دفع العُشر لملكي صادق، ليس لها علاقة بالخطية، الأمر الذي يتضح من فقرة طويلة في (عب ص ٧)؛ لأن هذه الإشارة هي عن الفرق بين كهنوت لاوي وكهنوت ملكي صادق، وعبارة الرسول: "كان في صلب أبيه حين استقبله ملكي صادق (عب ٧: ١٠) هي عن دفع العُشر لا عن الخطية؛ لأن الذي يحسم هذا هو عبارة الرسول بولس في (رو ٥: ١٤) عن مُلك الموت على الذين لم يخطئوا من آدم الذي أخطأ إلى موسى الذي قبل الشريعة، وعبارة رسول الرب لا تحتاج إلى تأويل: "على الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم"، أي الذين لم يكونوا قد ورثوا خطية آدم. هذا نراه في الفقرة التالية.

---

(١) وُلِدَ ماني وعاش في بلاد فارس (٢٦١–٢٧٦)، وقد صدرت دراسة موسعة في ٢٠٠٣ في جامعة بريتوريا – جنوب افريقيا، احتوت على أهم دراسات عن وراثة الخطية بعنوان:

Augustine and Manichaean Christianity.

ماذا تعني وراثة الخطية؟

أولاً: تعني أن الماضي هو أساس كل شيء. سقط آدم، وبالخطية صار لنا فَهمٌ يدور حول الماضي. والخطيةُ حدثٌ تمَّ في الماضي بواسطة فرد واحد. وسيطرة الماضي على الحاضر –وهو هنا حاضرنا نحن وحاضر كل الأجيال التي سبقتنا– يعني أن الحاضر يقف أمام حائل صد هو ما حدث في (تك ص ٣). هذا هو منهج كل مدارس الغنوصية، وقبلها المانوية، أي رد كل شيء إلى زمانٍ بعيد. حتى أفلاطون، وهو من أعلام الفكر اليوناني، فَهِمَ أن سقوطاً حدث في العالم العلوي السمائي، عُوقب الإنسانُ عليه بأن سُجِنَ في الجسد. وقد فَنَّدَ القديس كيرلس الكبير هذا الرأي في شرح إنجيل يوحنا (ص ١)؛ لأن تجسد الكلمة وقيامته –طبقاً لهذا المنطق– يعني بقاء العقوبة إلى الأبد. يقول رسول الرب: "كما في آدم يموت الجميع" (١كو ١٥: ٢٢)، ولم يقُل: "مات الجميع"، بمعنى أن الموت هو العلاقة الكيانية الوحيدة التي تربطنا بآدم. وعندما نعود إلى الماضي – وهو هنا خطية آدم، لا موت آدم– ننسى الموضوع الأصلي الذي لأجله تجسَّد الكلمة حسب شرح الرسولي أثناسيوس.

ثانياً: وبنسيان الموت، تتحول المسيحية إلى مجرد دعوة إلى تجديد أخلاقي، وهو ما جاءت به حركة الإصلاح طوال ٤٠٠ عاماً من تزيِّيفٍ للعلاقة الكيانية بين الثالوث والمؤمنين. إن التحول في السلوك، هو أمرٌ مطلوب، ولكنه ثمرةٌ تحوُّل الكيان. ولذلك لا تجد للموت –عندهم– من ذِكر إلَّا في الجنازات، بينما في الأوشية تعلَّمنا مِن أُم الشهداء: "اسمك القدوس هو الذي نقوله، فلا يقوى علينا موت الخطية، ولا على كل شعبك".

ثالثاً: وبالرغم من تعليمه بوراثة الخطية، عَجَزَ لاهوت العصر الوسيط الغربي عن شرح وراثة النعمة؛ لأن السؤال المنطقي الذي يطرح نفسه: إذا كانت الخطية تورَّث، فلماذا لا نرث النعمة؟

النعمةُ تحتاج إلى قرارٍ، وإلى فهمٍ وإرادةٍ وحياة. أمَّا الخطية، فهي انحرافُ القرار، وظلمةُ الفهم، وفسادُ الإرادة، وهذا لا يُنقَلُ بالوراثة، بل يقع في صميم الإرادة الإنسانية.

رابعاً: لو أدركنا أن علة الخطية هي الموت، كما يقول الرسول: "شوكة الموت هي

الخطية"، لَتَحَوَّلَ سِرُّ التوبة والاعتراف إلى شفاء، ولَفَهِمنا ضرورة التناول؛ لأنه "يُعطى عنا خلاصاً وغفراناً لخطايانا وحياةً أبديةً لكل من يتناول منه". لأننا نصارع رغبتنا في الوجود الأبدي بدون المسيح، ولكن "خبز الحياة" الذي يعطي لنا القيامة من الأموات –حسب تعليم الرب في (يوحنا ص ٦)– هو الذي يجعلنا "أبناء النور وأبناء القيامة"، وليس السلوك الأخلاقي.

خامساً: وغنيٌّ عن القول إننا نقدِّس الزيجة، مع أنها –حسب الفكر الأوغسطيني– هي مصدر انتشار الخطية باعتبار أن الخطية الأصلية تُنقل بالتوالد.

أرجو مراجعة تفصيلية لكتابنا وراثة الخطية أم سيادة الموت، وكذلك للمحاضرات العشرة عن تجسد الكلمة المنشورة على الموقع.

أتمنى أيضاً دراسة التاريخ قبل صياغة أي اتهام.

في بيتِ لحمٍ، زرعتَ بذرةَ الحياةِ
سقاها الروحُ في الأردنِ
شقَّت تربةَ الموتِ على الجلجثةِ
صارت شجرةَ الحياةِ التي أثمرت الخلود
أطعمَ الموتى خلوده
امتدت بيتُ لحمٍ بخبزه في كلِّ بيعةٍ
وسطعَ نورُ الجلجثةِ والقبر بالحياة
أنار البائسين وحَمَلَهم إلى عرشه

د. جورج حبيب بباوي